من تراب الطريق! (٢٨٠) الدوم (*)

فى الحديث الثانى لقصيدة الدوم من ديوان " العارف " للشاعر المحامى العالم الأديب محمد عبد الله محمد، يتابع الشاعر الحكيم أحوال الإنسان فى تيهه وبحثه عن الحقيقة التى ينشدها، وحيرته فى استطلاع مراده وفهم ما خفى عليه من أسرار الكون، بين الأرض التى عليها يعيش، والسماء التى إليها يتطلع، متأملاً دور العبادة التى جعل الإنسان يسرف فى زخارفها حاصرا نفسه فيها دون أن يدرك أن مسكن الرب سبحانه وتعالى فى القلوب .. فهل في وسع الآدمى الباحث عن الحقيقة أن يعرف ربه ؟ .. لا سبيل إلى ذلك إلاّ بأن يصاحب الإنسان ربه .. هذه المصاحبة ليست فى وصف وَصَّاف، ولا فى حبات مسبحة، ولا فى تصايح الأولياء والأقطاب .. إنه هنا قريب إلى عبده يتجلى له فى إعجازه المتبدى فى عظيم خلقه .. يقول محمد عبد الله محمد :

ذا همُّهُ الأرضُ أعطَى الأرض مُهجَتَهُ تنسىَ السماءَ وتنسى الشُّهبَ عيناهُ
وليس فى أيْكِهِ غصنٌ لِبُلْبُلَةٍ ولا نداءٌ من الأجواء ناداهُ
ولا صلاةٌ مِن الأعماق قد وصلَتْ ولا صفاءٌ من اليُنبوعِ صَافَاه
وإنما فى تُرابِ الأرضِ قَبْضتُه لا تترك الأرض يُمْناهُ ويُسْراهُ

* * *

(*) المال١٨/٦/٢٠٠٩

هذا البِنَاءُ حَسِبْنَا الربَّ يَسْكُنُـــهُ لمَّا مَلأنَـــاهُ سجّـاداً وأخْشَـابَا
وأرْسَـلَ المسكُ فى أطباقِهِ سُحُبـاً وجَلْجَلَ الصوتُ بالتطريـــب وانْـسَابَا
قد تَسْبَحُ العينُ فى أجواء مِئذَنَـــةٍ لا تلمَحُ الـــربَّ افعـالاً وأسبابَـا
إذْ لا نفكّـرُ أنَّ الـربَّ مسكنُـــهُ فى القَلْبِ - يترُكهُ - إنْ خانَ أو خابَى

* * *

لنْ تعرفَ الربَّ إلاّ أنْ تُصاحِبَـــهُ ولن تذوقَ الهَوى من وصْفِ وصَّافِ
ياواهمَ الشَوق ليسَ الشوقُ مِسْبَحَةً ولا تَصَايُـــحَ أصحـــابٍ وألآفِ
ولا تذكّـرَ جيرانٍ بِذِى سَلَـــــمٍ ولا توقّـــعَ إيلافٍ وإخْـــلافِ
ولو عَلِمْتَ بأنَّ الـربَّ داخلنـــــا كُفِيتَ رؤيـــة أوصـــافٍ وأطيـــافِ

* * *

أشَقُّ شىءٍ على الأفهـــامِ مَوْقِفُهَا من البَسَاطةِ فيما يَصْطَفِى البـــارِى
تُحِـــبُّ ألاَّ تَـــرَى إلاَّ عجائِبَـــه لاتبصِرُ النَّهَـــر فى تيّـــارِهِ الجارى
كأنما الربُّ لا يُمْضِـــى إرادَتَـــه إلاَّ خِلال أعاجِـــبٍ وأسْـــرارِ
هذا ولـــىُّ وذا قُطْـــبٌ وذا وَتَدٌ وذاك يأمُـــرُ فى الفردوسِ والنَارِ

* * *

هذى الوُرَيْقـــاتُ حَوْلَ التُّوتِ موقفُهَـــا من دودةِ القَزِّ مَرْعَاهَا ومَأوَاهَا
تَشْكُ من فقرِ الأيـــامِ خُضْرَتُهَـــــا ولا تَعَطَّل غـــزلُ القَزِّ أو شَاهَا
تَكَالُبُ ذى لُـــبٍّ على مائـــة مـــنَ العَنَـــاء تَمَنَّاهـــا وخَلاَّهَـــا؟
وكيف يطمـــعُ أنْ تبقـــى حماقتُـــه فـــلا تموتُ ولا تَفْنَـــى رَزَايَاهـــا؟

* * *

قد صَـــارَ مـــا وذاقَ القلبُ راحَتَـــهُ لـــم يَبْقَ قَشَّـــا وأوْراقاً وريشاتِ
حامَتْ عَنِ الحِسِّ حتـــى الموتِ قُبَّرةٌ لمَّـــا احتوى عُشَّها أغْلَـــىَ اللُبانَاتِ
تبنى النفـــوسُ عُشَيْشَـــاتٍ مُذهَّبَـــةً تُعانِقُ الأمنَ فى دفـءِ القُشَيْشَـــاتِ
لم تَفْهَمِ الربُّ يا مسكيـــنُ تَـــــرَى سِوَى تَشابُـــكِ ريشاتٍ وقَشَّـــاتِ

* * *

إنّا رَبَطْنَـا مراسِينَا بِخَالِقِنَـــــا ونحـــنُ نَعْلَـمُ أنَّ البحْـرَ دوَّارُ
وأننا فوقَ هَذِى الأرضِ موْضعُنَـــا فى قِشْرَةِ القشْرِ قد تَبْلَى وتَنْهَـــارُ
ونَقْبَلُ الموتَ كى نَبْقَى برفقَتِـــه مع الحياةِ ويِفْنَـى الثلجُ والنـارُ
وليس فى يَدِنَا مِنْ ذَا سِوَى أمَـــل فـــى الـــربِّ سيَّـــارٌ وفَرَّارُ